معاهد العلم فى عصر الحروب الصليبية :

الجامع الأزهر
فى عصر الحروب الصليبية

للأستاذ أحمد أحمد بدوى

الجامع الأزهر أول مساجد القاهرة ، أنشأه جوهر الصقلى بأمر المعز لدين الله أول خلفاء الفاطميين فى مصر وتم بناؤه سنة ٣٦١هـ ، ومنذ ذلك الحين ظفر الأزهر بعناية الفاطميين جيلا بعد جيل .

وكانت الغاية الأولى من تشييده إقامة الصلاة فيه ، ولكن لم يمض على إنشائه وقت قصير حتى سأل الوزير يعقوب بن كلس الخليفة العزيز بالله فى صلة رزق جماعة من الفقهاء ، فأطلق لهم ما يكفى كل واحد منهم من الرزق ؛ وأمر لهم بشراء دار وبنائها ، فبنيت بجانب الجامع الأزهر ، فإذا كان يوم الجمعة حضروا إلى الجامع ، وتحلقوا فيه بعد الصلاة إلى أن تصلى العصر ، وكانت عدتهم خمسة وثلاثين رجلا ، وكان لهم أيضاً من مال الوزير صلة فى كل سنة ، كما كانوا موضع عطف الخليفة يخلع عليهم فى عيد الفطر

صار الأزهر منذ ذلك التاريخ من أهم مواطن الثقافة فى مصر ، ولكن التعليم قد اصطبغ فيه ولا ريب — بالصبغة المذهبية ؛ فكان الفقه يدرس فيه على مذهب الشيعة ، وتقرأ فيه كتب هذا المذهب ، من مثل كتاب الاقتصار الذى وضعه أبو حنيفة النعمان بن محمد القيروانى قاضى المعز لدين الله فى فقه آل البيت ، وكتاب دعائم الإسلام ، وكتاب الأخبار فى فضل الأئمة الأبرار له أيضاً ، كما كانت تقرأ فيه الرسالة الوزيرية ، وهى كتاب الوزير ابن كلس فى الفقه الشيعى على مذهب الإسماعيلية ، وأقنى الناس بما فيه .

كانت الصبغة المذهبية هى الغالبة على الأزهر ، أما العلوم الفلسفية فقد نهضت بها دار الحكمة ، وإن كان يبدو أن هذه العلوم أيضاً كانت تدرس بالأزهر فى حدود ضيقة ؛ فقد كان الدعاة وهم أساتذة دار الحكمة يجلسون للتدريس فى الجامع الأزهر أحياناً كثيرة ، وكان داعى الدعاة يدرس فيه درساً خاصاً للنساء .

الذى نفى بسبب مهازله السياسية ، ثم غفر له قداسة البابا فعاد إلى ميدانه ، يقترحون عليه أن يشفع عند اليهود للعرب اللاجئين لكى يسمحوا لهم أن يعودوا إلى بلادهم . ذلك لأن مساعى الطران جورج الحكيم ، مطران فلسطين ، لإعانة اللاجئين لا تعجبهم ؛ فسألنا أحد هؤلاء المقترحين : ولما ذا تطلبون شفاعة الطران مبارك ؟ فأجاب لأن اللبنانيين أصدقاء اليهود فهم يقبلون شفاعتهم ويراعون خاطرهم !

ما شاء الله ! أإلى هنا وصلنا ؟ تطلب وساطة مطران اليهود لدى اليهود لينعموا على العرب بيبوتهم !

من قال للطران مبارك والمقترحين الشفاعة عليه أن العرب يقبلون هذه الصدقة منهم ؟!

سيعود العرب — بقوة الله — إلى بلادهم مرفوعى الرأس مرهوبى الجانب عند ما تتكسر شوكة الطغاة الأراذل !

كنا نظن أن أصدقاء اليهود فى لبنان يقترحون على الطران مبارك أن يجمع الإعانات للاجئين إذا كان له نفوذ بين شعبه . وإذا كانت له هذه المكانة عند اليهود ، فلينقذ القرى اللبنانية التى غزاها اليهود وطردوا أهلها منها . أليست هذه القرى فى دائرة إرشيته ؟ !

وهل يستطيع الطران مبارك أن يدفع الذئاب من اليهود عن العرب لو أتيح له أن يعيدهم إلى بلادهم . لما ذا « طفشوا » ؟ أليس لأن أطفالهم ونساءهم العزل لا يستطيعون أن يقاوموا ذئاباً . فما ذا أعد لحمايتهم من هؤلاء الذئاب ؟ !

إن من البلايا التى نزلت بفلسطين أن بعض أثرياء اللبنانيين كانوا سببها ، لأنهم باعوا لليهود أملاكهم التى فى فلسطين ، فوجد الصهيونيون رحاباً فسيحة يزرعون فيها مستعمراتهم ، ويمدون منها أيديهم وأرجلهم إلى ما حولهم ، حتى يطغوا فى المستقبل على لبنان ، وبومئذ يصبح الطران مبارك صاخباً لا مطراناً — فليهنأ هو وقومه حينذاك !

فإذا ذكرت نكبة فلسطين ، وذكرت إغاثة أهلها ، فليخرس الجانب الصهيونى من اللبنانيين !

حسبهم خزياً أنهم لم يفعلوا شيئاً فى حرب اليهود ، ولم يحموا بعض القرى اللبنانية منهم !

نفور الحمار

ولست أدرى إن كان غير مذهب الشيعة الإسماعيلية فى الفقه وغيره قد وجد سبيله إلى الأزهر فى الأوقات التى كانت تضعف فيها حدة الدعوة الإسماعيلية كما حدث فى عهد الأفضل الإمامى القسامح وزير الآمر ، والعادل بن السلاد السنى وزير الظافر .

غير أنه مما لا شك فيه أن مذهب الشيعة قد اختفى تدريسه من الأزهر يوم قضى صلاح الدين على الخلافة الفاطمية ، وأبطل الخطبة من الجامع الأزهر ، ذلك أنه قلد وظيفة القضاء صدر الدين بن درباس ، وهو شافعى ، فعمل بمقتضى مذهبه ، وهو امتناع إقامة خطبتين فى بلد واحد ؛ فأبطل الخطبة من الجامع الأزهر وأقرها بالجامع الحاكمى لكونه أوسع . والظاهر أن ذلك لم يكن إلا تبريراً لما أراده صلاح الدين من إهمال أمر الأزهر وصرف عناية الناس عنه ، لأنه أقدم موطن لنشر دعوة الشيعة فى البلاد ، ولولا ذلك لأمكنه أن يجمع فيه مرة وفى الجامع الحاكمى أخرى ، ولكن إهمال الأزهر كان خطة رسمها صلاح الدين وخلفاؤه من بعده ، فأنشئوا المدارس المختلفة التى نافسته ، وأقبل عليها المدرسون أكثر من إقبالهم على الأزهر ، لكثرة ما تدره هذه المدارس على مدرسيها وطلبتها ، ولما كانت تظفر به من رعاية أولى الأمر ؛ ولكن التدريس لم ينقطع من الجامع الأزهر برغم انقطاع خطبة الجمعة فيه ، وإهمال السلاطين أمره ، وها هو ذا عبد اللطيف البغدادى يأتى إليه فى عصر العادل ويتردد عليه عشر سنين ، مستمعاً إلى الأساتذة الحاضرين حيناً ، وقائماً بتدريس الطب والفلسفة والمنطق طرفى النهار حيناً آخر .

وظل الجامع مهملاً من سلاطين الدولة ، والجمعة فيه معطلة زهاء مائة عام إلى أن سكن بجواره الأمير عز الدين أيدمر الحلى نائب السلطنة فى عهد بيبرس ، فانتزع كثيراً من أوقاف الجامع كانت مغصوبة بيد جماعة ، وتبرع له ، وأصلحه وأقام فيه منبراً ، وأذن القاضى الحنفى بإعادة الخطبة فيه ، فأعيدت يوم الجمعة ١٨ ربيع الآخر سنة ٦٦٥ هـ ، وعمل الأمير فيه مقصورة رتب فيها مدرساً وجماعة من الفقهاء على مذهب الشافعى ، ورتب محدثاً يسمع الحديث النبوى والرقائق ، ورتب سبعة لقراءة القرآن ، ووقف على ذلك أوقافاً دارَّة تكفيه ، ولم يلبث الأزهر أن ظفر بمكانة سامية يدل عليها أن الذى تولى أمر خطابته فى عهد المنصور قلاوون وابنه هو عبد الرحمن ابن بنت الأعز ، قاضى قضاة الشافعية ، ومن بعده كذلك محمد بن ابراهيم بن جماعة . وذاع صيت الأزهر منذ ذلك الحين ، وأصبح معهداً علمياً يؤمه الناس من كل فج ، وافى الأزهر من العناية الشىء الكثير ، وزاد فى مجده أن غزوات المغول فى الشرق قضت على معاهد العلم فيه ، وأن الإسلام أصابه فى المغرب من التفكك والانحلال ما أدى إلى دمار مدارسه الزاهية .

وحفظ التاريخ من أسماء مدرسيه فى عصر الحروب الصليبية محمد بن بركات بن هلال الصوفى ، أحد فضلاء المصريين وأعيانهم أخذ النحو والأدب عن أبى الحسن بن بابشاذ فأتقنهما ، وله أيضاً معرفة حسنة بالأخبار والأشعار ، ولكنه كان منحطاً فى الشعر ، يقول السيوطى عنه : ليس له أحسن من هذين البيتين :

يا عتق الإربق من فضة ويا قوام الغصن الرطب
هبك تجافيت وأقصيتنى تقدر أن تخرج من قلبى ؟!

والظاهر أنه كان مضيقاً عليه فى الرزق ، يدلنا على ذلك ما روى من أنه وقف للأفضل شاهنشاه أمير الجيوش ، وهو راكب فى الطريق فأنشده :

يا رحمة الله التى واسعها لم يضق
لم يبق إلا رمق فاعتبق منى رمق
وعن قليل لا أرى كأننى لم أخلق

فسأل الأفضل عنه ، فقيل له هذا بحر العلم ابن بركات النحوى ، فقال له الأفضل أنت شيخ معروف ، وفضلك موصوف ، وقد حملنا عنك الوقوف وأمر له بشىء . ويبدو أنه اتصل بالأفضل بعدئذ ، وألف له كتاب الإيجاز فى معرفة ما فى القرآن من منسوخ وناسخ ، ولعل هذا الكتاب وما ألفه فى النحو من تصانيف من بين ما قرأه فى الأزهر على طلبته . كما أنه وضع كتاباً فى خطط مصر أجاد فيه ، وتوفى فى ربيع الآخر سنة ٥٢٠ وله مائة سنة وثلاثة أشهر .

ومنهم الحسن بن الخطير أبو على النعمان الفارسى المعروف بالظهير ؛ وقد اشتغل زمناً طويلا بالتدريس فى الأزهر ، روى عنه ياقوت أنه قال : أنا من ولد النعمان بن المنذر ، ومولدى بقرية تعرف بالنعمانية ، ومنها ارتحلت إلى شيراز ، فتفقهت بها ، فقيل

لى الفارسى، وانتحل مذهب النعمان وانتصر له فيما وافق اجتهادى .
قال ياقوت : وكان عالماً بفنون من العلم ، قارئاً بالعشر والشواذ ، عالماً بتفسير القرآن وناسخه ومنسوخه والفقه والخلاف والكلام والمنطق والحساب والهيئة والطب ، مبرزاً فى اللغة والنحو والعروض والقوافى ورواية أشعار العرب وأيامها وأخبار الملوك من العرب والعجم . ومما ساعده على معرفة ذلك كله أنه كان يحفظ فى كل فن من هذه الفنون كتاباً ، فكان يحفظ فى التفسير كتاب لباب التفسير لتاج القراء ، وفى فقه الشافعى كتاب الوجيز للغزالى ، وفى فقه أبى حنيفة كتاب الجامع الصغير لمحمد بن الحسن الشيبانى ، نظم النسفى ، وفى الكلام كتاب نهاية الإقدام للشهرستانى ، وفى اللغة كتاب الجمهرة لابن دريد ، وكان يسردها — كما قيل — كما يسرد القارئ الفاتحة ، وكان يحفظ فى النحو كتاب الإيضاح لأبى على الفارسى ، وفى العروض كتاب الصاحب بن عباد ، وكان يحفظ فى المنطق أرجوزة أبى على بن سينا ، وكان قيما بمعرفة قانون الطب له ، وكان عارفاً باللغة العبرية ويناظر أهلها بها ، وقد ظل يحفظ متون هذه العلوم مدة أربع عشرة سنة كان يكتبها ألواحاً ، ويحفظها كما يحفظ القرآن .

وكان الغالب عليه الأدب واللغة يجلس بين يديه شيخ الديار المصرية عثمان بن عيسى النحوى ، ويسأله سؤال المستفيد عن حروف من حوشى اللغة . وفى مرة سأله عن كلمة منحوتة ، ففسرها له ، وأملاه كلمات على مثالها فى نحو عشرين ورقة من حفظه ، وسمى ما أملاه كتاب تنبيه البارعين على المنحوت من كلام العرب . وكان ابن سناء الملك يسأله عن كلمات من غريب كلام العرب وهو يجيب عنها بشواهدها . وقد كانت معرفته باللغة سبباً فى انتصاره على المجير البغدادى عند ما دخل خوزستان؛ فقد بدأ مناظرته إياه بألفاظ حوشية أحب المجير أن يستفسر عنها؛ وهنا انتهز النعمان هذه الفرصة فشنع عليه وقال : انظر إلى المدعى رتبة الإمامة يجهل لغة العرب ... والمناظرة إنما اشتقت من النظير ، وليس هذا بنظيرى ، لجهله بأحد العلوم التى يلزم المجتهد القيام بها . وكثر لغط أهل المجلس وانفض ، « وشاع فى الناس أنى قطعته » .

وكان الظاهر قد أقام بالقدس مدة ، فأغراه العزيز عثمان ابن صلاح الدين بالصعود معه إلى القاهرة ، وأجرى عليه كل شهر ستين ديناراً أو مائة رطل خبزاً ، وخروفاً وشمة كل يوم ومال إليه الناس والعلماء ، وصار له سوق قائمة ، إلى أن قرر العزيز المناظرة بينه وبين شهاب الدين الطوسى ، ولكن الطوسى فى يوم عيد انتهز كلمة مجاملة قالها الظاهر للعزيز فى أثناء الكلام ، ولم يدر الطوسى النطق بها فأصماه ، وانكسرت حرمته عند العزيز ، وشاعت القصة بين العوام ، وانتهى أمره بأن انضوى إلى المدرسة التى أنشأها تركون الأسدى يدرس بها مذهب أبى حنيفة إلى أن مات سنة ٥٩٨ .

وكان قد أملى كتاباً فى تفسير القرآن وصل فيه إلى تفسير قوله تعالى : تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض . فى نحو مائتى ورقة ، ومات ولم يختم تفسير سورة البقرة . وله كتاب فى شرح الصحيحين ، اختصره من كتاب الإفصاح فى تفسير الصحاح للوزير ابن هبيرة ، وزاد عليها أشياء وقع اختياره عليها ، وكتاب فى اختلاف الصحابة والتابعين وفقهاء الأمصار ولم يتمه ، وله خطب وفصول وعظية مشحونة بغريب اللغة وحواشيها.

ومن أساتذة الأزهر يؤمئذ نصر بن محمود المظفر الأديب النحوى اللغوى ، قرأ الأدب على ابن الخشاب والكمال الأنبارى ، وسمع بمصر من البوصيرى ، وامله قرأ بالأزهر رسالته فى الضاد والظاء ، ومات سنة ٦٣٠ .

وممن تصدر للاقراء فيه شيخ الإقراء بالديار المصرية على ابن يوسف الشطنوفى المولود بالقاهرة سنة ٦٤٧ ، وقد تكاثر عليه الطلبة وكان الناس يكرمونه ، وينسبونه إلى الصلاح ويحمدون سيرته ، وانتفع به جماعة فى القراءة ، كما كان ممدوداً من النحاة ، وله اليد الطولى فى علم التفسير ، أملى فيه تعليقاً على طلبته ، وكان أستاذه الروحى عبد القادر الجيلى ، جمع أخباره ومناقبه فى ثلاثة مجلدات ، وسمى كتابه البهجة ، ولشدة إعجابه به دون كل ما سمعه عنه ولو كان الراوى غير أهل للثقة ، فدخل فى الكتاب حكايات كثيرة مكذوبة . وقد ولى الشطنوفى أيضاً تدريس التفسير بالجامع الطولونى والإقراء بجامع الحاكم ، ومات بالقاهرة سنة ٧١٣ .

ومن أعلام الصوفية الذين جلسوا بالجامع الأزهر ، وتحدثوا بمبادئهم فيه يومئذ تاج الدين بن عطاء الله السكندرى المتوفى سنة ٧٠٩ ، كما كان يقيم عمر بن الفارض الشاعر الصوفى المشهور

(حلوان الحمامات) أحمد أحمد بروى

مدرس بكلية دار العلوم بجامعة فؤاد الأول